الباب الأول

قدرة الله في الكون

obeikandl.com

obeikandl.com

قدرة الله في الكون

طلاقة القدرة أساس إيماني لكل شيء أخبرنا الله عنه، وجعله غيباً عنا، وكل شيء يكشفه الله ﷻ لنا جيلاً بعد جيل، ذلك أن هذه الأشياء التي تزيدنا يقيناً بقدرة الله، يجب أن تزيدنا خشوعاً له، فكل يوم يضاف إلى علمنا أسرار كانت موجودة في هذا الكون ولم نكن نعرف عنها شيئاً، وهذه الأشياء في كثير من الأحيان تصحّح مفاهيم خاطئة كانت موجودة على أساس أنها علم أرضي.

ولو أننا فهمنا بحصر ما كشفه لنا الله ﷻ من أسرار في الكون، لوجدنا أن هذا الجيل يجب أن يكون أكثر عبادة وخشية الله من الأجيال التي سبقته لأنه وصل إلى أسرار في الكون جعلته يعرف قدرة الخالق وعظمته، والله ﷻ يقول: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ [يونس: 24] ومعنى هذه الآية الكريمة: أن الله سيكشف من أسرار كونه للبشر ما يريهم به دقة صنعه وإحكام خلقه، ولكن البشر لن يأخذوا هذه الأشياء على هذا المعنى، بل سيركبهم الغرور، ويحسبون أنهم هم الذين صنعوا، وهم الذين اكتشفوا، ويجعلهم هذا الغرور يظنون أنهم قد وصلوا إلى العلم الذي يمكنهم من أن يتحكموا في كل شيء في الأرض، حينئذ يأتي قضاء الله وتقوم الساعة. ولقد استخدم الله ﷻ كلمة **(ظن)** لحكمة بالغة، ذلك أن الله هو الذي سخر للإنسان كل ما في الكون، وهو الذي كشف له عن الآيات في هذا الكون.

ولكن بدلاً من أن ينسب الإنسان الفضل لصاحبه، نسبه لنفسه، ليس حقيقة ولكن (ظناً)، فالعلم كلما تقدم اعتقد الإنسان أن هذا عطاء من ذاته، وأنه هو الذي سخر هذه الأشياء لنفسه، وهذا الظن يجعله يعتقد أنه قد سيطر على الأرض تماماً،

وأصبح قادراً عليها وعلى كل القوى فيها، حينئذٍ تأتي الساعة، وتتعطل القوانين كلها، ويعرف الإنسان أن ما وصل إليه هو من فضل الله، وأن الله إذا كان قد خلق لنا الأسباب وجعلها خاضعة لنا فيجب ألا نغتر بها وننسى طلاقة القدرة، ولقد قال الله ﷻ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: 53]. والقرآن كلام متعبد به لا يتغير ولا يتبدل حتى قيام الساعة، ولذلك فإن كل جيل سيقرأ ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ والسين مستقبلية والمعنى أن كل جيل سيرى ما لم يره الجيل الذي سبقه، ليس فقط من آيات الله في الأرض بل في الآفاق، وفي النفس البشرية.

ولعل التقدم العلمي في كشف الآفاق وفي معرفة أسرار الجسم البشري يجيء مصداقاً لهذه الآية الكريمة، ويجب أن نعرف أنه لا يقدر على العطاء المستقبلي إلا الله ﷻ، فلا يمكن مهما بلغت أنا من العلم أن أتنبأ بما سيحدث مستقبلاً، ولأجيال قادمة، ولكن الله سبحانه هو القائل وهو الفاعل، ومن هنا فإنه يستطيع أن يعطينا صورة يقينية عن المستقبل. والله ﷻ يريد أن ينجي المؤمنين من هذه الحياة الشقية، فهو وعدهم بالحياة الطيبة، والحياة الطيبة ليس فيها الشقاء البشري الذي تفرضه المادة على الإنسان، بل فيها رحمة الله ﷻ، تلك الرحمة التي جعلت طفلاً كإسماعيل عليه السلام يضرب الأرض بقدمه الصغيرة فيخرج ماء زمزم بعد أن هرولت أمه عليها السلام بين الصفا والمروة سبعة أشواط وهي تبحث عن الماء، تأتي رحمة الله لتجعل الماء يخرج من ضربة بقدم طفل صغير، فيتشقق الصخر ويخرج منه الماء، تلك هي المعجزة الكبرى التي يريدنا الله أن نعيش معها.

وأيضاً يجب الإشارة أن كل شيء في الكون قد جعل الله له مولداً في طلاقة قدرته. فطلاقة القدرة هي التي تكشف أسراراً لكل جيل أخفيت عن الجيل الذي سبقه. فالله له عطاء جديد لكل جيل من البشر. وإذا أردنا أن نستطرد في شرح هذه النقطة نقول: إن بعض الناس يعجزه تفكيره عن فهم تفسير للآية الكريمة: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: 80] وبعضهم لا يذهب إلى الطبيب تطبيقاً لهذه الآية، والبعض الآخر يذهب إيماناً منه بأن الشفاء يحدث على يد الطبيب، ولكن

الذي يحدث أن لكل شفاء أجلاً، فإذا جاء الأجل أو الموعد كشف الله للطبيب المرض فيتحدد الداء والدواء ليتم الشفاء.

فالشفاء مقدر في علم الله ﷻ مقرناً بسببه المتمثل في الدعاء أو الدواء أو كليهما. ولن يكون ذلك إلا بفعلك الاختياري الذي علمه الله ﷻ في سابق غيبه. فالأدب مع قضاء الله وقدره يتمثل في اتخاذ الأسباب طبقاً لسنة الله في هذا الكون، أما انتظار النتائج مع الإعراض عن الأسباب التي جعل الله منها سنة ماضية في عباده، فهو تمرد على قضاء الله وقدره، وسوء أدب مع قانونه الماضي في خليقته.

وكما يقال عن المرض، يقال عن كل كشف من أسرار الأرض، يريد الله ﷻ أن يمكِّن منه خلقه، فكل كشف له ميلاد عند الله وفي علمه، والذي يحدث أنه عندما يأتي وقت هذا الميلاد إما يصادف هذا الكشف عالم يبحث عنه فيكشفه الله ﷻ له، وإذا لم يصادف هذا الكشف عالم يبحث في نفس الموضوع كشفه الله ﷻ لعالم يبحث في موضوع آخر، ولذلك نرى كثيراً من الأبحاث العلمية التي تبدأ بالبحث عن كشف تنتهي إلى كشف آخر مختلف تماماً لم يكن يدور في ذهن العالم، بل حدث بطريق ما نسميه الصدفة، ولو تتبعنا الكشوف العلمية وما يحدث فيها لوجدنا أن اكتشافات كثيرة قد تمت دون أن يكون هناك باحث عنها بالذات، بل بدأ البحث عن شيء وانتهى إلى شيء آخر، وهكذا يكون العطاء في كثير من الأحيان بمولد وميقات من الله ﷻ، ولكن الله ﷻ لا يطلعنا على ذلك فأحياناً نأخذ بالأسباب وأحياناً نرى أن هناك أشياء يحار العقل فيها فننسبها للصدفة أو للحظ أو لكل هذه المسميات.

والله ﷻ لا تحده قيود ولا حدود ولا شيء عنده يقع تحت كلمة مستحيل، وأنه مادام قد وعد، ووعده الحق فإنه سيتحقق، وأنه قادر على أن يخلق جنات فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وقادر على أن يعطي الإنسان نعيماً أبديًّا ويعطيه عذاباً أبديًّا وقادر على أن يسجل أعمال كل البشر وعلى أن يواجههم بأعمالهم في الآخرة، تلك كلها لا تخضع لقانون السببية، ولكنها تخضع لطلاقة القدرة التي حرص الله ﷻ على أن يبينها لنا قولاً وفعلاً ويضعها في

حياتنا اليومية، فنحن نعيش مع طلاقة القدرة كل يوم ليزداد إيماننا بالغيب الذي حجب عنا، ونحن حين نجد طلاقة القدرة التي تصطدم مع العقول وتحيّرها، إنما يزداد إيماننا بأن الله ﷻ فوق قدرة العقول كلها.

والله ﷻ لم يجعل طلاقة القدرة غيباً عنا، ولا جعلنا نجهلها ولا نعرف عنها شيئاً، بل ذكرها في مواضع كثيرة في القرآن الكريم، بحيث نجد في كل سورة إشارة إلى طلاقة قدرة الله ﷻ فإذا قرأت قوله تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾، ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾، ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾، ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾، ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾، ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾، ﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾، ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾، ﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾. نجد أن الله ﷻ قد أعطانا طلاقة القدرة في هذه الآيات وفي عشرات من الآيات الأخرى في القرآن الكريم، وليست هذه الآيات إلا مثلاً فقط على أن طلاقة القدرة يشار إليها في القرآن الكريم في أكثر من موضع، ولو قرأت القرآن لوجدت أضعاف أضعاف هذه الآيات تنبئنا بطلاقة القدرة، على أن الله ﷻ لم يجعل طلاقة قدرته سراً على عباده، بل أنبأهم بطلاقة هذه القدرة ووجودها.

ولعل الله ﷻ في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يسٓ: 82] هو قمة طلاقة القدرة، ذلك أن هذه الآية تنبئنا أنه ليس عند الله أسباب. وأنه إذا كان قد خلق الأسباب لتنتظم الحياة على الأرض، فهي ليست قيداً على مشيئته ﷻ، ولو كانت قيداً لقال لنا الله إنه إذا أراد شيئاً هيأ له الأسباب ليكون، ولكن كلمة ﴿كُن﴾ معناها أنه لا دخل للأسباب هنا، وأن الشيء يوجد بمجرد قول الله ﷻ: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ دون أسباب أو مسببات، وخلق السمٰوات والأرض وما فيهما كان بكلمة ﴿كُن﴾ وخلق الإنسان كان بكلمة ﴿كُن﴾، والله ﷻ يقول: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ [الشورى: 49] ويقول: ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ [الشورى: 50]. والحكمة هنا أنه رغم أن الله ﷻ قد جعل السبب في الذرية من ذكر وأنثى، أي أنه لا يتم الإنجاب إلا باجتماع الذكر والأنثى، وتتوقف الأسباب أمام مشيئة الخالق، هذا ما قاله الله ﷻ عن طلاقة القدرة في القرآن الكريم.

فإذا جئنا إلى التطبيق، وجدنا أن طلاقة القدرة ظاهرة واضحة في الرسل عليهم السلام، فمعجزاتهم كلها تأتي بطلاقة القدرة وليس بالأسباب:

فنوح عندما دعا ربه أن يهلك الكافرين فتحت ينابيع من السماء والأرض ليتم الطوفان، ولم تفتح هذه الينابيع بالأسباب، ولكنها فتحت بطلاقة القدرة.

وإبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وخاصية النار هي الإحراق، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: 69] فتوقفت خاصية الإحراق في النار فأصبحت لا تحرقه ولا تؤذيه، هنا أيضاً طلاقة القدرة.

وموسى عليه السلام عاش مع طلاقة القدرة طوال عهد نبوته، نظراً للمعصية المستمرة لبني إسرائيل، فقد قال الله: ﴿ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ﴾ [الشعراء: 63] فانفلق وظهر قاعه ووقف الماء الذي من خاصيته الاستطراق، وقف ساكناً بعيداً عن الأرض بقدرة الله سبحانه وتعالى، وعبر موسى وقومه البحر، وعندما استسقى موسى قومه، ضرب الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، ولو أن موسى عليه السلام قام بحفر حفرة ليبحث عن الماء، لقلنا إنه عين واحدة، ولكن اثنتا عشرة عيناً، ذهبت كل عين بمائها إلى القوم الذين قسمها الله لهم، ورفع الجبل فوق بني إسرائيل، وضربهم الميت بأجزاء من البقرة بعد ذبحها، أي ضرب ميت بميت، وتخرج منها الحياة، ويبعث القتيل ليدل على قاتله.

كل هذه معجزات لا يمكن أن تدخل فيها الأسباب، بل هنا تتجلى طلاقة القدرة في أن يقول للشيء ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: 82].

ثم تأتي بعد ذلك طلاقة القدرة في زكريا ومريم، حينما دعا زكريا الله أن يهبه غلاماً: ﴿فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ﴾ [آل عمران: 39]، ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا﴾ [مريم: 7] هنا أخذت زكريا طلاقة القدرة فاهتزَّ، وسأل الله سبحانه وتعالى كيف يمكن أن يحدث ذلك وهو شيخ كبير وامرأته عاقر، أي أن الأسباب إذا طبقناها هنا لا يمكن أن تؤدي إلى مولد طفل، حينئذ رد الله سبحانه وتعالى عليه: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن

قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: 9]، أي أن الله ﷻ ذكَّر زكريا بطلاقة القدرة فقال له: لا تعتقد أن هناك شيئاً صعباً عليّ لأن الأسباب لا تأتي به، بل من أهون الأشياء على قدرتي أن أفعل ما أريد، ويتم ما أشاء بدون أسباب.

فيقول تعالى بمعناه: وإذا كان هذا صعباً على فهمك، فتذكر خلقك ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: 9] فإذا كانت قدرتي أن أوجد من العدم، أفلا أستطيع أن أخلق بلا أسباب؟

وعندما دخل زكريا المحراب على مريم وجد عندها رزقاً، أي فاكهة في غير أوانها فسألها: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ [آل عمران: 37] أي من أين أتيت بهذه الفاكهة وهذا الطعام، فقالت: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: 37] إشارة إلى أن طلاقة القدرة لا يستعصي عليها شيء بل إن خلق المسيح عيسى ابن مريم كان من طلاقة القدرة، والله ﷻ خلق آدم من لا شيء، وخلق حواء من آدم، أي أنثى من ذكر بلا أنثى، وخلق من ذكر وأنثى، ولإتمام مراحل الخلق بقي أن يتم الخلق من أنثى بدون رجل، وقد تم ذلك في عيسى ابن مريم عليه السلام.

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى الإسراء والمعراج نجد أنها معجزة كبرى دالة على طلاقة القدرة، فرسول الله ﷺ أسري به من مكة المكرمة إلى بيت المقدس، حيث صلى بالأنبياء، وهي طلاقة في القدرة أن يصلي حي بأولئك الذين انتقلوا إلى جوار ربهم منذ مئات السنين، ثم بعد ذلك انطلقت به طلاقة القدرة ليخترق السمٰوات السبع، ويصل إلى سدرة المنتهى، وهذا الإطلاق كان فيه تغيير لطبيعة الأشياء حتى يمكن لرسول الله أن يصل إلى سدرة المنتهى، بل إن الوحي نفسه من طلاقة القدرة أن يلتحم الملك بإنسان ليتم تبليغ القرآن الكريم، كل هذه الأشياء في مجموعها هي تطبيق حي لطلاقة قدرة الله ﷻ، فالله لم يذكر لنا طلاقة القدرة في القرآن الكريم دون أن يعطينا أمثلة على التطبيق متواكبة مع رسله تؤيدهم هذه القدرة بالمعجزات التي رواها لنا القرآن الكريم على أن طلاقة القدرة لم تتوافر للرسل وحدهم بل هي في كل جزء من الحياة.

لذلك نرى أن الجوارح تأخذ بالأسباب ليل نهار، فالإنسان يعمل ويتناول

الدواء ويدرس ويذهب للامتحان ويبحث عما قد ينفعه ويحرص على مصلحته، أما القلب فمنقطع عن الأسباب، متصل بالله وحده، ومن معاني التوكل أن تأخذ بالأسباب بالجوارح، ثم تقطع الأسباب عن القلب، فأنا أذهب لفلان حتى يؤمن لي عملاً، لكن حين تدخل إليه تطلب من الله، لكن لا تتبجح أمامه فتقول: انظر: أنت لن يكون لك أي يد في عملي، فهذا القول خطأ كبير، فمن جميل الأخلاق أن يبقى الإنسان مؤدباً، لماذا؟ لأن هذا من الأخذ بالأسباب، تعامل الناس بأدب وتأخذ بالأسباب وقلبك منقطع عن الأسباب، وهذا معنى التوكل، فقلبك من الداخل موقن بأن لا أحد سيوقفك إلا الله، لهذا يقول العلماء كلمة طيبة جدًّا، يقولون: ينقطع أمل الناس إذا انقطعت الأسباب، وهذا ما يحصل. ماذا يحصل لأمل الناس حين يستقيل فلان الذي كان سيوظفك في هذه الوظيفة؟

وانظر ماذا يصنع الناس على أبواب الأطباء؟ بعضهم يقف على باب الطبيب أربعاً وعشرين ساعة، يحمل طفله الرضيع ـ مثلاً ـ عند طبيب الأطفال، وهذا الطبيب مشهور ويقطع الناس مئات الكيلومترات ليقف على باب طبيب حتى يعالج ابنه، لماذا؟ لأنه يثق في الطبيب، واثق بأن الطبيب مجتهد وسيأخذ بيد ابنه، وهذا الأمر صحيح بالجوارح، لكن ليس الأمر كذلك بالقلب، فليس الطبيب الذي سيشفي، بل الله يشفيه، لكن ينبغي أن تذهب للطبيب آخذاً بالأسباب.

وأحياناً يقطع الله عنك كل الأسباب ـ وهذا من حب الله لك ـ ولكن كيف؟

أريد أن أسألك سؤال: من يقف بجانبك؟: فلان. ومن أعز إنسان على قلبك؟: فلان.

فهذا سيترك العمل وهذا سيموت، وتشعر بأنك قد ضعت أبداً، ولكن الله تعالى يقول لك: أنا أريدك أن تلجأ إلي وحدي. ماتت خديجة ومات أبو طالب ليلجأ النبي ﷺ إلى الله وحده، فحين تجد أن كل الأسباب تغلق في وجهك فلا تحزن واعرف أن الله يريدك أن تلجأ إليه وحده، فالله يحب أن يتعلق قلب العبد به وحده حين يكون العبد طائعاً، فأحياناً ينشغل العبد عن الله بأمور دنيوية فيأخذها الله

منه حتى ينشغل بالله وحده ويتوكل عليه وحده، فلا بد من التوكل على الله، والله تعالى ضرب لنا في القرآن قصة تبين رحلة نبي في الدنيا، وقصته تنطبق على كل البشر، تتعلق بالخير أو الشر الذي يواجهه الإنسان.

فسيدنا يعقوب كان يحب ولده،

فهل هذا أمر جيد أم لا؟ إنه أمر جيد، فماذا تكون النتيجة؟

يأخذه أخوته غدراً من أبوه ويرموه في البئر،

فهل هذا أمر جيد أم لا؟ إنه أمر سيئ، فماذا تكون النتيجة؟

تكون النتيجة أن يلتقطه بعض المارّة، ويأخذوه إلى مصر ليباع عبداً، وينشأ في بيت العزيز، فأكرمه وأحسن إقامته عنده وأنعم عليه.

فهل هذا أمر جيد أم سيئ؟ إنه أمر جيد، فماذا تكون النتيجة؟

أن يدخل السجن، بعد ما افترت امرأة العزيز عليه ظلماً،

فهل هذا أمر جيد أم سيئ؟ إنه أمر سيئ، فماذا تكون النتيجة؟

أن يصبح عزيز مصر، ومن ثم يعود إلى أباه يعقوب.

وما لنا إلا أن نقف على الحديث الذي رواه عبد الله بن عباس ﷺ يقول فيه: كنت غلاماً، فقال لي النبي ﷺ: «**يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو قد اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وأن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف**».

وهذا هو التوكل، احفظ الله داخل قلبك يحفظك طوال حياتك وفي الجنة والآخرة، لو اتفقت البلد كلها على أن يعطوك عشرة جنيهات لن يستطيعوا إلا لو كان الله قد كتبها لك، ورفعت الأقلام فلن يكتب أي أمر جديد، وجفت الصحف فلن يمسح شيء مما كتب. ولكن لا تفهم من هذا الكلام إنه إذا كنت تخطط

لمستقبلك فهذا مضاد للتوكل، فالنبي محمد ﷺ كان يخطط، وسيدنا يوسف عليه السلام وضع خطة لخمس عشرة سنة كيف تخرج مصر من الكبوة الاقتصادية التي كانت تعانيها، فهو يخطط أمراً لا يتعارض مع التوكل، لكن الذي يتعارض هو أن تبقى بعد التخطيط مهموماً.

وكثيراً من الناس قد يستشكل بحرية الاختيار، هل تتعرض لمؤثرات تربوية واجتماعية تقضي عليها؟.

والجواب أن إرادة الإنسان لا تنبع في فراغ، ولا توحي بمتطلباتها من دون حافز، فإرادة الإنسان لا تتجه به إلى الأكل إلا لأنها شعرت بحافز الجوع، ولا تتجه به إلى الماء إلا لأنها تلقت حافز الظمأ، ولا تتجه به إلى العبادة إلا تأثراً بحافز الرهبة من عقاب أو الرغبة في ثواب، ولا تدعوه إلى المعصية إلا طلباً للذة أو إرواء لغريزة.

إن الحياة الإنسانية متشابكة، والتفاعل بين المجتمع والفرد حقيقة ثابتة، ولكن منبع المسؤولية في كل الأحوال والظروف هو القرار الذي يتخذه الإنسان. والمؤثرات التربوية لا تملك أكثر من أن توحي وتوجه، والعقل يملك القدرة ذاتها.

يضربون مثلاً بالطفل الذي ينشأ في أسرة غير معنية بوجود الله، وغير ملتزمة بشيء من ضوابط الدين ومبادئه، ويرون أن مثل هذا الإنسان ينشأ في هذا المناخ مشلول الإرادة، لا يملك لأمر نفسه أي خيار معاكس.

ويمكن الرد بأن هذا المناخ لا يشل الإرادة ولا يقوى على شلها، كل ما في الأمر أنه يحاور الإرادة سعياً إلى إقناعها، ويتخذ جنداً من العقل والنفس، والقرار الأخير للإرادة التي تنتهي بالتوجه والعزم.

والدليل على ذلك أنك قلما تجد شاباً سلك مسلك أبويه وأسرته، بعد أن تكامل رشده واستقل بأمر نفسه، في شؤون الحياة ووظائفها. بل إنك تنظر فتجده ـ على الأغلب ـ قد شق لنفسه طريقاً آخر، واختار لها عملاً لا عهد لأسرته به، وليس فيها من يلتفت إليه أو يؤمن به.

فكم من شاب نشأ في أسرة عريقة بخبرتها وأعمالها التجارية تتمتع فيها بالغنى الكثير والخير الوفير، أعرض عن هذه العراقة وقيمتها، ولم يلق بالاً لنصائح ذويه، واختار لنفسه من دون ذلك، الدخول في أعمال السياسة ومنعرجاتها... والعكس أيضاً واقع كثير.

وكم من شاب أو فتاة، نشأ كل منهما في بيت كِل ما فيه ينسى الله ووصايه وأحكامه، ويغري بالإباحية والتقلب في فنون الملذات، فتسامى فوق ذلك كله، وقرر الانفراد عن نهج أسرته بسلوك سبيل الالتزام بأوامر الله وأحكامه والابتعاد عن سائر المحرمات.

إذن فالتيار الاجتماعي ومناخ الأسرة، لا يملك أي منهما أن يشل فاعلية الإرادة لصالحه. أجل من شأن ظروف الأسرة أن تشوش على الإنسان سبيله في اتخاذ القرار المخالف، ولكن العقل هو الملاذ لتيسير السبيل واتخاذ القرار.

والإنسان في كل الظروف وأمام سائر الخيارات، معرض لهذا التشويش، محكوم عليه بهذا الصراع. إذ إنه إن لم يجد معارضة من التيار الاجتماعي فلسوف يجد ذلك فيما تتطلبه حظوظ النفس وأهوائها. وتلك هي سنّة الله تعالى في عباده، متَّعهم بالعقل والرشد، ووضعهم بين جواذب مما يميله العقل ويفرضه الرشد، وجواذب مما تدعوه إليه الحظوظ والرعونات والأهواء، وأقدرهم ـ عن طريق الإرادة التي متعهم بها ـ على الاختيار واتخاذ القرار، أي إن الله تعالى منح الإنسان إرادة كلية، أي ملكة وطاقة بها يختار الأشياء ويريدها ويصطفي ما يشاء منها، فيمارسها باختيار ما تتجه إليه نفسه من جزيئات التصرفات والأفعال، وعندئذ يخلق الله أفعاله وتصرفاته تلك مطابقة لاختياراته التي اتّجه إليها، ومما لا شك فيه أن ذلك كله ثابت ومسجل في علم الله الأزلي. فنقول بناءً على ذلك: إن الله علم وأراد ما يصدر عن الإنسان بإرادته واختياره من خير وشر، وبدون تأثير، فالعباد منساقون إلى فعل ما يصدر عنهم باختيارهم لا بالإكراه والجبر، فليسوا مجبورين في اختيارهم المعلوم لله أزلاً، لأن علمه ﷻ كاشف له ما هو عليه من غير سبق خفاء ولا إجبار، أي لا تأثير لتعلق علم الله تعالى بإيمان فلان أو بكفره، فالله تعالى يعلم

بعلمه أنك ستموت على الإيمان أو الكفر، ولكن علمه هذا لا تأثير له عليك من حيث حرية الاختيار.

فلذلك نرى أن الإنسان مسيّر ومخيّر، مسيّر بالولادة والموت والمرض وحركة الارتعاش وسائر الأعمال التي تصدر خارج قصده، ومخيّر في التصرفات والأعمال التي تأتي ثمرة قصد وإرادة من صاحبها، كالقيام إلى الصلاة وغيرها.

فالسجل الذي يحوي علم الله ﷻ بكل ما يجري في ملكوته، هو المعني بكلمة (القضاء)،

وجريان هذه الأمور وفق علم الله ﷻ، هو المعني بكلمة (القدر) وربما استعمل كل من هاتين الكلمتين محل الكلمة الأخرى.

وكل ما يجري ويحدث في الكون فإنما يخلقه الله ﷻ، بما في ذلك أفعال الناس وتصرفاتهم الاختيارية وغيرها.

والله تعالى متّع الإنسان بالإرادة، وأقدره على حرية الاختيار، فبوسعه أن يستعين بهما في نطاق التصرفات التي مكنه من ممارستها، أي في نطاق شؤونه الاختيارية، وقد سمّى القرآن توجه الإنسان باختياره إلى عمل ما (كسباً).

والثواب والعقاب منوطان بهذا الكسب الذي هو من شأن الإنسان وهو صاحبه والمسؤول عنه، وليسا منوطين بعين الفعل الذي هو من خلق الله.

ولله ألطافاً من التوفيق والعناية وشرح الصدر للخير، يتدارك بها المعترضين لها من عباده.

وقال الشيخ محمد الحامد رحمه الله: «الله ﷻ خالق الأفعال ومقدرها، والعبد كاسبها ومحصلها، يمدح ويثاب باختيار الخير، ويذم ويعاقب باختيار الشر».